2000 0413 - 0016 - P

Thursday April 13, 2000 | AS.SAFIR

«لا أريد أن أتذكر.. لا أريد أن أعرف.. أريد أن يخرس الجميع»

حين عجنتهم الحرب من دون أن يخبزوها

حين تحوّلت المواقف الى ملاجئ

«مبروك.. خلصت الحرب».

عبارة غريبة التأثير على الشباب الذين لم يعرفوا من الحرب سوى سنواتها العشر الاخيرة.. تلك السنوات التي تلقوا خلالها اصوات المدافع، مشاهد متكاملة وآثارا «في الارواح»، ولكن، مع إعلان هذه الجملة، «انتهت الحرب»، انتهت معهم الذكرى وحان وقت الجودة..

طووا الصفحة ولم ينسوها.. بنوا حواجز تفصل بينهم وبينها، بينهم وبين الذكرى، تلك الذكرى التي رسمت معالمهم ثم «غيبت» فجأة.

«نسيت.. ما بعرف.. خلصوا الذكريات.. ايه، هيك وبس»، تتردد هذه الكلمات بعد محاولات نبش الذكرى الى ان تصل في نهاية الحديث الى المنطقة المحظورة «ما بقى بدي اتذكر.. خلص».

عندما يتحول الأبيض أسود

يقول حبيب (٢٤ سنة) وهو من سكان صيدا: «كنا نحب الاسرائيلية لأنهم يرمون لنا البون بون اثناء حربهم، في حين كانت الميليشيات «المسيحية» تلقي بالقاذورات على القرآن، تمزقه، تضرب عجائز البلدة وتسرق متاجرها، وفي حين كان دخول «الجيوش الاسلامية» و«الاشتراكية» الى الضيعة مرادفا للقتل وللتبجح الذي كنا نسمعه من «الكوريدور».. ولكن، في واحدة من المرات التي انصرف فيها اخي كعادته لتسجيل مجمل اعداد الصواريخ التي تم قصفها وانواعها، وهو المهووس حينها بأدوات القتل، دخل الاسرائيليون منزلنا، فقد اعتقدوا ان جاسوسا كان هنا، ولكن عندما أدركوا ان اخي هو «الفاعل»، احتجزوه وأجبروه على قضاء وقت طويل جدا في محاولات اعادة كتابة الورقة الى ان تمكن من رسم الاحرف ذاتها بالاسلوب ذاته.

أذكر الفانيلا البيضاء التي كان يرتديها جارنا بشكل دائم، خلعها يوم دخول الاسرائيليين وعلقها على شباك منزله لتعلن استسلاما ابيض، استسلام العاجز.. بعد الحرب، بعدما «خلصت»، الحرب صرت شوف الفانيلا المعلقة سجادة سوداء تعلن الحداد على بناياتنا التي اصبحت ميتة وحزينة.. مات فيها الكثيرون من جراء الجلطات في القلب والدماغ، من دون رصاصة مباشرة او شظية طائشة.. لكن الموت النفسي الذي يقتل ولا يميت كان اوسخ من الموت الفعلي.

أذكر اغنيات احمد قعبور ومارسيل خليفة.. اذكر الملحق الاخباري الذي نادرا ما لم ننتظره، ونادرا ما كان يأتينا بما ننتظره.. كنا نريد ان نعرف وكان يخبرنا بآخر المفاوضات والاجتماعات ومحاولات «الصلحة».. اذكر المشهد الذي كثيرا ما كنا نؤديه ما ان يبدأ القصف. ننصرف جميعا الى الهاتف بحثا عن ماما وعن اختي، ثم ننزل كلنا الى الملجأ. فكلنا لازم نكون سوا، يا نموت سوا يا نعيش سوا.. وبالحقيقة، لم يكن ملجأ، كان مستودعا لاصحاب البناية يحوي مكيفات احتليت «فختا» من بينها وحولته غرفة لي.. حفظت داخلها صورا وسريرا والراديو الخاص.. كان خندقي داخل كم من السخانات.. وكنت انصرف لتسجيل كل ما يمر على الراديو من اغنيات وامور لافتة.. كنت اسجل القصف كي اعيد تشغيله عندما يتصل أبي من الخارج كي يسمع ما نعيشه..».

لم يكن حبيب يخاف من الاسرائيليين لان حربهم سياسية تحمل هدفا ما اتفقوا عليه، مهما كان سيئا. لكن خوفه الاكبر هو ان تعاد حرب اللبنانيين، تلك التي لا يرى فيها اكثر من «كبت.. كبت وعدائية وشراسة معباية فيهن، مشحونين فيها.. بيبطلوا عارفين ليه عم يعملوا هيك، بيستلذوا لأنن عم يعملوا، عم يئذوا»..

«نسيت.. عن جد»

أما ثريا فأول ما تذكره من الحرب هو «صينية القهوة التي انكبت وقت فاتوا الاسرائيلية على البيت.. كنت صغيرة جدا ومتربعة في حضن خالتي، أذكر، ولا ادري كيف، اني خفت كثيرا وتخبأت.. اذكر تقاليد لحظات القصف الاولى: حين يكون اهلي خارج المنزل، يتصلون ويأمروننا بالانبطاح في الطابق الارضي بعد فتح الشبابيك.. كنا نختبئ تحت طاولة السفرا، وننصرف لأكل البوشار ونتغيب عن المدرسة.. «انزلوا على الدرج على مهلكم وأوعوا تضووا الضو».. «بابا خليك بالشغل شكلهم حيبلشوا».. مرة، كنا في بيك نيك واشتغل القصف.. اتصل والد صديقتي بأهلي وقال لهم: ما تخافوا، لو صار لهم شي بنجيب غيرهم.. اذكر ان والدتي انقهرت كثيرا من كلامه، في حين كنا نحن نرفع صوت الموسيقى كي لا نسمع القصف ونخبئ رؤوسنا تحت الكراسي في السيارة ونتشاجر بين بعضنا كي لا نجلس الى جانب الشباك.. كنت ابتاع الكثير من بيض الكيندر، وألهو بها في الملجأ، كان إسمي عم إلعب لحد ما يوقف القصف ونطلع نلعب مع ولاد الجيران»..

تروي ثريا القصة تلو الاخرى، وعنوان الحديث دائما: «ما بتذكر شي كتير»، ولو فتح المجال لامتد الحديث أياما لاتذكر خلالها شيئا، ولكنها تعيد مشاهد «كل شيء»..

واقع الأمس.. مفاجأة اليوم

وفجاة، نتذكر.. وفجاة، «كأن شيئا لم يكن».. وفجاة، يرى حبيب صورة والدته وهي تبكي اخته التي غابت عن البيت لمدة شهر بعدما تم قصف مدرستها.. غابت لان الراهبات خبأوا التلاميذ في مكان بعيد من دون الاتصال بالاهل.. بعثت شقيقته والذكرى، وعادت صورة والدته بملابسها السوداء..

وفجاة، وبعد ساعة من الحديث المتواصل عن الحرب، تتذكر مريم ان والدها قد خطف لمرات عدة خلال الحرب.. فجأة تتذكر انه غاب شهرا عن المنزل قبل ان يطلق سراحه، ثم تقرر عند هذه اللحظة تحديدا ان «ما بقي بدي اتذكر»..

تقول مريم: «بتذكر طفولة كتير بشعة.. بتذكر اكثر شي لما مات بشير، وقت فقنا على ضرب كتير وكان الطقس حلو.. اذكر اننا في كل مرة كنا نهرب الى خارج بيروت، كنت اشم في زياراتنا الى المنزل رائحة «الجديد»، وأشعر أن كل ما في منزلنا ما زال جديدا، وان كنت في الآن ذاته اموت من رائحة الغبار.. اذكر القذيفة التي اخترقت غرفة خالتي وحولت كل ما فيها رمادا وأشلاء وبقايا حاجات.. اذكر الانهيار الذي اصبنا به كلنا مام هذا المشهد.

الحرب كانت الملجأ وبكاء الاطفال.. الركض على السلالم مشهد لا يمكنني اليوم ان اراه من دون ان احسه.. كان خوفا كبيرا وهيستيريا جماعية.. اهالينا، الناس، ما حدن عارف شو بدو يعمل.. جارنا تبع اللحمة، ماتت مرتو. عرفنا ذلك في صباح ليلة طويلة بعد القصف، اذ كنا نستيقظ ونتجه مباشرة الى الشرفة لاستقصاء المعلومات: شو صار، مين مات، وين تهدم.. وفي غمرة كل ذلك، وحين كان يعلو صوت سيارة الاسعاف، كانت الاخبار تصلنا كل يوم لتفيدنا بسادية مطلقة بهوية المجتمعين والمنسقين للسلام والداعين لوقف اطلاق النار..

اذكر مشاهد كثيرة اكثرها صمودا في ذهني صورة امرأة عجوز ترتدي فستانا لونه «فوشيا» وتولول لفقدان ابنها، في حين كانت امرأتان الى جانبها تحاولان تهدئتها.. تتكرر هذه الصورة كثيرا. وما زالت تعرض ما ان يحين موعد ذكر الحرب الى اليوم.. فصور الحرب تحتلها عادة النساء، وصوتها بكاء عال ومشاهدها حزن يتفجر.. هدم، اولاد، بنايات تقع، سيارات تحترق، بكاء أمي على حاجز الاولي نتيجة الذل والانتظار الذي كانت تعتقد، في كل مرة، انه لا ينتهي.. كان ملجأنا غرفة الكهرباء، والكهرباء نادرا ما زارتنا خلال الحرب.. كنا نسمع الراديو وننتظر ملاحقه واخبار القصف ومواقعه.. الناس كانت مجنونة.. اذكر اصرار ابي على النزول من السرير من جهة الحائط عل الرغم من كون المساحة التي تفصل بين سريره والحائط لا تتسع لمرور طفل فيما الجهة الثانية مفتوحة.. كان يتخانق مع كل من ينصحه بالنزول من الجهة الاخرى ويصر على قناعته الخاصة.. يه.. اوف..

كنت اتحدث ذات مرة الى عالمة نفس، فأخبرتني ان الشعب مر في فترة فقدان وهي لسنوات طويلة.. ما حدن تعالج وهم يكملون حياتهم حتى اليوم على هذا الشكل.. حسيت هلأ الاشياء المدفونة، هيك حسيت انا وعم احكي.. ما ممكن حدن يتخيل لأي درجة حاسة حالي مقلقزة وهيك.. في جيل بحالة مش طبيعي»..

تقول ذلك قبل ان تنصرف الى دموع مخبأة وسرير آمن وذكريات لم تختلف ولم تتحول.. ذكريات فجة كواقعها.

حرب عائلية أليفة

كلهم احبوا الحرب لألفتها، كلهم تعلقوا بالجمع العائلي والاجتماعي الذي كانت تكرسه، وكلهم شعروا خلالها بحرارة انسانية يفتقدون اليوم لها،ولا يطلبونها.. «اذكر الجلوس في كوريدور البناية حيث كنا نتعرف الى الناس.. اليوم ما بقى نعرف حدن»، تقول كارلا التي عاشت الحرب عن قرب، فوجدت نفسها وهي في اولى سنوات المراهقة داخل ثكنة عسكرية نتيجة التزام والدها بحزب محارب..

«أذكر أغاني الجنرال وجعجع، كنت أصرف وقتا طويلا، كل الوقت المخصص لنا من التقنين الكهربائي امام شاشة التلفزيون كي انتظر التصريح والتصريح المضاد.. الكليب والكليب المضاد.. الاغنية والرد.. ما كنت شوف بيي.. استغربت انو كان معنا خلال الاجتياح.. كنا اكثر مدرسة تروح على المدرسة خلال الحرب.. الراهبات رفض ان تقفل المدرسة ابوابها، واذكر مشهد الراهبة الرئيسة وهي تطرد المسلحين من المدرسة متسلحة بمقشة.. اذكر رحلتنا الى الضيعة التي كانت تأكل من وقتنا سبع ساعات.. كنا نمر على مالية الحزب الاشتراكي وندفع، وأسر جدا بالايصال واحتفظ به لأنه يسمح لنا بالمرور لمدة شهر كامل من دون دفع»..

اخترق المعبر فخرس

كريستينا في الرابعة والعشرين من العمر، كانت طفلة عندما فقد والدها حاسة النطق بعدما احتجز طويلا عند «الاسلام» وميليشياتهم: «راح.. خرج مرة وهو يتسلح بالصليب على صدره.. غامر ونزل على «الغربية» عشان يشوف تاجر هونيك.. راح الساعة ستة الصبح ليتمكن من الوصول على الموعد نتيجة نطرة المعابر وقرفها.. كان يسب وهو خارج، ويلعن الساعة التي تجبره على الخضوع لهذا الكم من الاهانات التي بات يقهره اعتياده عليها.. خرج برفقة عمي الذي وعد بأن يوصله الى نقطة العبور على امل ان «يدبر حاله» بعدها.. كانت الساعة السادسة صباحا، وعاد الى المنزل عند الرابعة من صباح يوم آخر.. عاد متأخرا جدا بواسطة شاحنة لمه صاحبها عن قارعة الطريق، الى جانب رقعة المهملات.. عاد شخصا آخر لجهة الشكل والمضمون.. لم يضحك عاليا للقائي، ضحك صامتا، وبدأت مصائبنا منذ ذلك الحين، وكنا اعتقدناها ستنتهي..

عاد ابي اخرس.. لا يتكلم ولا يريد ان يتكلم، فيما نحن نريد ان نسمع.. عاد بعد شهرين وعشرين يوما.. كان نحيلا جدا وكان حزينا جدا واصبح قاسيا جدا.. غضبه كله فجره بنظرة ادمت عيني وقتها.. خطفته «حركة امل» وقتلت فيه كل امل في الحياة.. الحرب كانت ضد أبي شخصيا كونه مسيحي الجنسية: ومصرا على قطع المعبر.

اذكر الملجأ بعدها، عندما تحول مكانا لتنفيذ حكم الصمت.. لم يكن احد يقوى على الكلام كما لو اننا جميعا قد خطفنا.. حرب عون والسوريين، حرب عون وجعجع، لم افهمها ولم اتحمس لها وخفت كثيرا خلالها..

حروب كثيرة ولدت في بيتنا فجاة وحروب أشرس ولدت داخلنا.. في العمق، داخلنا.. لا اريد ان اتذكر ولا اريد ان اعرف، جل ما اريده ان يخرس الجميع ويحترموا صمت أبي الذي تحول، مع الايام، موتا خيم على المنزل وحطم امي واغتصبني»..

انتهت الحرب، ومن تلقاها في سن مبكرة اختار ان ينهي ذكراها، انما كل من خندقه، وكل من داخله.. لم تمحَ الحرب، لكنها اصبحت كالباب الذي تأتينا منه الريح، فنحاول سده لكن.. من دون ان نستريح.

س.م.